

المحاضرة الخامسة عشر / المرحلة الثانية

المحسنات المعنوية: المحسنات المعنوية كثيرة، لكننا رأينا ألا نذكر منها إلا ما اشتهر أمره، وأهم الناثر والشاعر علمه:

الطباق - المطابقة - التكافؤ - التضاد

هو لغة الجمع بين الشيين، واصطلاحا الجمع بين معنيين متقابلين، سواء أكان ذلك التقابل تقابل التضاد أو الإيجاب والسلب أو العدم والملكة أو التضاييف، أو ما شابه ذلك، وسواء كان ذلك المعنى حقيقيا أو مجازيا ١.

وهي تنقسم أولا إلى:

أ- مطابقة بلفظين من نوع واحد، سواء أكانا اسمين، نحو: {وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ} ٢ أم فعلين نحو: {تُؤْتِي الْمَلِكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمَلِكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ} ٣، وقوله عليه السلام للأنصار: "إنكم لتكثرون عند الفرع وتلقون عند الطمع"، أم حرفين نحو: {لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ} ٤، وقول القائل:

ربكنا في الهوى خطرا فإما ... لنا ما قد ركبنا أو علينا

ب- مطابقة بلفظين من نوعين نحو: {وَأَخِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ} ، وقوله:

قد كان يدعى لابس الصبر حازما ... فأصبح يدعى حازما حين يجزع

والتقابل إما ظاهر كما سبق وإما خفي نحو: أشداء على الكفار رحماء بينهم فإن الرحمة تستلزم اللين المقابل للشدة، وقول أبي تمام:

ما الوحش إلا أن هاتا أو إنس ... قنى الخط إلا أن تلك ذوابل

لما في هاتان من القرب وتلك من البعد.

ثانيا إلى:

أ- طباق الإيجاب كما سلف لك من الأمثلة.

ب- طباق السلب، وهو أن يجمع بين فعلي مصدر واحد مثبت ومنفي، أو أمر ونهي، كقوله تعالى: {وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ، يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} ، وقوله تعالى: {فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَخَشَوُا اللَّهَ} . ومن الطباق ما سماه بعضهم التدبيح من دبح

الأرض زينها، واصطلاحا أن يذكر في معنى كالمدح وغيره ألوان لقصد الكناية أو التورية.

فتدبيح الكناية كقول أبي تمام يرثي أبا نهشل محمد بن حميد:

تردى ثياب الموت حمرا فما أتى ... لها الليل إلا وهي من سندس خضر

فقد كنى عن القتل بلبس الثياب الحمر وعن دخول الجنة بخضر السندس، إذ هو من شعار أهلها، وجمع بين الحمرة والخضرة على سبيل الطباق. وتدبيح التورية كقول الحريري: فمذ ازور المحبوب الأصفر واغبر العيش الأخضر، اسود يومي الأبيض وابيض فودي الأسود، حتى رثى لي العدو الأزرق فيا حبذا الموت الأحمر، فالمعنى القريب للمحبوب الأصفر إنسان ذو صفرة، والبعيد الذهب، وهو المراد هنا، فيكون تورية، وأما بقية العبارة فكناية ويلحق بالطباق شيئا أحدهما ما يسمى: إيهام التضاد، وهو الجمع بين معنيين غير متقابلين، معبرا عنهما بلفظين متقابلين، كقول دعل الخزاعي:

لا تعجبي يا سلم من رجل ... ضحك المشيب برأسه فبكي

فإن ضحك بمعنى ظهر، وبكى بمعناه الحقيقي.

المقابلة: ومن الطباق نوع يخص باسم المقابلة، وهي أن يؤتى بمعنيين متوافقين أو أكثر ثم يؤتى بما يقابل ذلك على سبيل الترتيب. فمقابلة اثنين باثنين كقوله عليه السلام لأم المؤمنين عائشة: "عليك بالرفق يا عائشة فإنه ما كان في شيء إلا زانه، ولا نزع من شيء إلا شانه".

وقول النابغة الجعدي:

فتى تم فيه ما يسر صديقه ... على أن فيه ما يسوء الأعدايا

ومقابلة ثلاثة بثلاثة كقوله تعالى: {وَيَحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتُ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثُ}.

وقول المتنبي:

فلا الجود يفني المال والجد مقبل ... ولا البخل يبقي المال والجد مدبر

ومقابلة أربعة بأربعة، نحو: {فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى، وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى، وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى، وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى} وتتضح لك مقابلة اتقى باستغنى إذا علمت أن المراد بالاستغناء الزهد فيما عند الله كأنه استغنى نه، فلم يتق، أو استغنى بشهوات الدنيا عن نعيم الجنة، فلم يتق.

ومقابلة خمسة بخمسة كقول أبي الطيب:

أزورهم وسواد الليل يشفع لي ... وأنثني وبياض الصبح يغري بي

ومقابلة ستة بستة كقول الآخر:

على رأس عبد تاج عز يزينه ... وفي رجل حر قيد ذل يشينه

وثانيهما: الجمع بين معنيين يتعلق أحدهما بما يقابل الآخر نوع تعلق كالسببية واللزوم، كقوله تعالى: {وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ} فإن ابتغاء الفضل يستلزم الحركة المضادة للسكون .

مراعاة النظير - التناسب - الائتلاف

هي أن يجمع في الكلام بين أمرين، أو أمور متناسبة، لا بالتضاد، وبالقيد الأخير يخرج الطباق.

فالجمع بين أمرين كقوله تعالى: {الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ} ١ .

وبين ثلاثة كقول البحري يصف إبلا بالإنضاء والهزال:

"كالقسي المعطفات بل الأسهم مبرية بل الأوتار".

فقد اختار تشبيهها بالقسي دون العراجين والأطناب مثلا من أجل أنه أراد تشبيهها بالأسهم والأوتار، فيحصل بذكرها معها ملاءمة لا تحصل بدونها. وبين أربعة كقول بعضهم للوزير المهلبي: أنت أيها الوزير إسماعيلي الوعد، شعبي التوفير، يوسفى العفو، محمدي الخلق. وبين أكثر من أربعة كقول ابن رشيق:

أصح وأقوى ما سمعناه في الندى ... من الخبر المأثور منذ قديم

أحاديث ترويهما السيول عن الحيا ... عن البحر عن جود الأمير تميم

فقد لائم بين الصحة والقوة والسماع والخبر والأحاديث والرواية، ثم بين السيل والحيا، أي: المطر والبحر، وكف تميم، وبذا صار الكلام ملئتم النسج، محكم التأليف والحوك، مع ما أدخله في البيت الثاني من حسن الصنعة، إذ أتى بصحة الترتيب في العنونة، إذ جعل الرواية لصاغر عن كابر، كما يقع في سند الأحاديث، ألا ترى أن السيول أصلها المطر، وهو أصله البحر، وهو أصله كف الممدوح على حسب ما ادعاه مبالغة في المدح.

تشابه الأطراف:

من مراعاة النظير ما يسمى: تشابه الأطراف: وهو أن يختم الكلام بما يناسب أوله في المعنى كقوله تعالى: { لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ }.

فإن اللطف يناسب ما لا يدرك بالبصر، والخبرة تناسب من يدرك شيئاً؛ لأن الخبير من له علم بالخفيات، ومن جملة الخفيات بل الظواهر الإبصار فيدركها. ويلحق بها ما يسمى إيهام التناسب، وهو الجمع بين معنيين غير متناسبين بلفظ يكون لهما معنيان متناسبان، وإن لم يكونا مقصودين هنا، كقوله تعالى: { الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ، وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ } ، فالنجم هنا النبات الذي لا ساق له كالبقول وهو إن لم يكن مناسباً للشمس والقمر يوهم نجم السماء وهو مناسب لهما.

الإرصاد، التسهيم:

الإرصاد لغة نصب الرقيب في الطريق والتسهيم جعل البرد ذا خطوط كأنها فيه سهام، واصطلاحاً أن يجعل قبل آخر الفقرة أو البيت ما يفهمهما عند معرفة الروي، كقوله تعالى: { ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ } ٢، وقول البحثري:

أحلت دمي غير جرم وحرمت ... بلا سبب يوم اللقاء كلامي

فليس الذي حلته بمحلل ... وليس الذي حرّمته بحرام

فالسامع إذا وقف على قوله تعالى: { وَهَلْ نُجَازِي } ، بعد الإحاطة، بما تقدم علم أنه ليس "إلا الكفور"، والحاذاق بمعاني الشعر وتأليفه يعلم بعد أن عرف البيت الأول وصدر الثاني في بيتي البحثري أن ليس عجزه إلا ما قاله.

المشاكلة:

هي لغة المماثلة واصطلاحاً ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته تحقيقاً أو تقديراً، فالأول كقوله عز وعلّا: { وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا } ٣، إذ الجزاء على السيئة ليس بسيئة في الحقيقة لكنه سمي سيئة للمشاكلة اللفظية، وقوله عليه السلام: "إن الله لا يمل حتى تملوا" ٤، فقد وضع: لا يمل، موضع: لا يقطع عنكم ثوابه.

وقول أبي الرقعق، وقد تظرف ما شاء:

قالوا اقترح شيئاً تجد لك طبخه ... قلت اطبخوا لي جبة وقميصاً

فقد عبر عن خياطة الجبة بالطبخ لوقوعه في صحبة طبخ الطعام.

والثاني كقوله تعالى: { صِبْغَةَ اللَّهِ } ١، وهو مصدر مؤكد لآمنا بالله، والمعنى تطهير الله؛ لأن الإيمان يطهر النفوس.

وأصل ذلك أن النصارى كانوا يغمسون أولادهم في ماء أصفر يسمونه المعمودية، ويقولون إنه تطهير لهم، فعبر عن الإيمان بالله بصبغة الله للمشاكله بهذه القرينة الحالية ٢.

المزاوجة:

هي لغة مصدر زواج بين الشئيين قرن بينهما، واصطلاحاً أن يجمع بين الشرط والجزاء في ترتب لازم من اللوازم عليهما معاً نحو:

إذا ما بدت فازداد منهما جمالها ... نظرت لها فازداد مني غرامها

فقد زواج بين معنيين هما بدوها وظهورها ونظره لها في الشرط والجزاء في أن ترتب عليهما لزوم شيء، وهو ازدياد الجمال وازدياد الغرام.

ونحوه قول البحري:

إذا ما نهى الناهي فلج بي الهوى ... أصاخ إلى الواشي فلج به الهجر

فقد جمع بين الشرط والجزاء في لزوم شيء وهو لجاج الهوى ولجاج الهجر، ولا يخفى ما في ترتب لجاج الهوى على النهي من المبالغة في الحب لاقتضائه أن ذكرها ولو على وجه العتب يزيد حبها ويثيره كما قال:

أجد الملامة في هواك لذيدة ... حبا لذكرك فليمني اللوم

وما في ترتب لزوم الهجران علي وشي الواشي من المبالغة في كون حبه على شفا جرف، إذ يزيله مطلق الوشاية، فكيف يكون لو سمع أو رأى عيباً، كما قال الآخر:

ولا خير في ود ضعيف تزيله ... هواتف وهم كلما عرضت جفا

العكس، التبديل:

هو أن تقدم في الكلام جزءاً، ثم تعكس فتقدم ما أخرت وتؤخر ما قدمت وهو على وجوه، منها:

١- أن يقع بين أحد طرفي جملة وما أضيف إليه ذلك الطرف نحو قولهم: عادات السادات سادات العادات ١، فالعادات أحد طرفي الكلام، والسادات مضاف إلى ذلك الطرف، وقد وقع العكس بينهما بأن قدم أولاً العادات على السادات ثم السادات على العادات.

ونحو قوله بعضهم لآخر: لم لا تفهم ما يقال؟ فأجاب: لأنك لم تقل ما يفهم.

وقول متصدق: لا سرف في الخير، ردا على من اتهمه بالتبذير، وقال له: لا خير في السرف.

وقول المتنبي:

أرى كل ذي ملك إليك مصيره ... كأنك بحر والملوك جداول
إذا أمطرت منهم ومنك سحابة ... فوابلهم طل وطلبك وابل

٢- أن يقع بين متعلقين فعلين في جملتين نحو: يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي.

وقول الحماسي:

رمى الحدثنان نسوة آل حرب ... بأمر قد سمدن له سمودا ٢
فرد شعورهن السود بيضا ... ورد وجوههن البيض سودا

٣- أن يقع بين لفظين في طرفي جملتين نحو: ما عليك من حسابهم من شيء يوما من حسابك عليهم من شيء، وقول الحسن البصري: إن من خوفك حتى تلقى الأمن خير ممن آمنك حتى تلقى الخوف، وقول المتنبي:

فلا مجد في الدنيا لمن قل ماله ... ولا مال في الدنيا لمن قل مجده

الرجوع:

هو رجوع المتكلم إلى الكلام السابق بنقضه وإبطاله لنكتة كالتحسر والتحزن في قول زهير:

قف بالديار التي لم يعفها القدم ... بل وغيرها الأرواح والديم

فإنه حين وقف على الديار دهش وذهل، فأخبر بما هو غير حاصل فقال: لم يعفها القدم ثم تاب إليه لرشده فتدارك كلامه وقال: يلي وغيرها الأرواح والديم.

ونحو قول الحماسي:

أليس قليلا نظرة إن نظرتها ... إليك وكلا ليس منك قليل